العمارة المدنية بالاندلس

(الدار الاندلسية)

سامي حسن

لمحة تاريخية عن الاندلس :

قبل أن نتعرض للعمارة المدنية بالاندلس وهي عمارة عربية اسلامية، يجدر بنا أن نستعرض تاريخ العرب في تلك البلاد، فقد فتح العرب بلاد الأندلس بعد أن دانت لهم مصر وبلاد المغرب، وما كاد الأمر يستقر لعمرو بن العاص في مصر حتى اندفع الى السير غربا كي يقضي على سلطان الروم في بلاد المغرب حتى يؤمن بذلك حدود مصر، ومن بلاد المغرب غزا العرب شبه الجزيرة التي تقع الى الشمال من المغرب الأقصى واطلقوا عليها اسم الاندلس. ولفظ الاندلس كان نيصرف في بادئ الأمر الى جميع البلاد التي فتحها العرب في شبه الجزيرة ثم صار مدلوله يتقلص بتقلص نفوذهم في البلاد وهي الآن تطلق على الجزء الجنوبي من اسبانيا.

وقصة فتح العرب لاسبانيا وهو الاسم الذي عرفت به شبه الجزيرة عند الرومان تتلخص في أنهم بعد أن استقر بهم الأمر في بلاد المغرب ودانت بأكملها لهم، بقيت مدينة واحدة خارجة عن سلطانهم وتابعة لاسبانيا وهي مدينة «سبتة» ولم يكن أمير تلك المدينة على وفاق مع ملك بلاده، وعندما استحكم العداء بينهما، واشتدت الجفوة اتجه أمير سبتة بدافع من كراهيته الى تحريض العرب على غزو اسبانيا،

واستجاب موسى بن نصير حاكم بلاد المغرب في ذلك الوقت لهذا الاغراء واستأذن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في غزو تلك البلاد فأذن له وتم الفتح على يد طارق بن زياد، الذي أطلق اسمه على الجبل الذي يقع الى الجنوب من شبه الجزيرة وسمي بجبل طارق. وانضم موسى بن نصير الى قائده طارق لكي يشاركه شرف الجهاد وينعم معه بحلاوة النصر، وتعاون الاثنان على اتمام فتح البلاد وبلغا أقصى خدودها الشمالية عند جبال البرانس حيث لجأ اشراف الاسبان والقوط واستقروا هناك مترقبين الفرصة لاستعادة بلادهم. وحكمت الاندلس من دمشق تسعا وثلاثين عاما اختلف عليها فيها من الولاة عدد كبير ونجح العرب في خلالها في التوغل في قلب فرنسا حتى وصلوا مدينة (تور بواتيه) غير أنهم هزموا هناك أمام جيوش الفرنجة في واقعة «بلاط الشهداء» التي نظر اليها المؤرخون الأجانب من زاويتين مختلفتين، فريق منهم رأى أن هزيمة العرب هناك قد حالت دون انتشار الاسلام في أرجاء أوروبا ومكنت للمسيحيين فيها وحمتها من هذا الدين الجديد الذي وجد سبيله الى نفوس المسيحيين في البلاد الأخرى . وفريق آخر رأى أن هزيمة العرب في هذه الواقعة قد أخرت أوروبا في ميدان الحضارة سنين عديدة وهذا حقا هو الواقع ، فلو أن العرب نجحوا في التوغل داخل أوروبا لاستيقظت من سباتها، وبدأت عصر نهضتها قبل التاريخ الذي قامت فيه هذه النهضة بعدة قرون.

سقطت الخلافة الأموية في دمشق سنة 750 م ونجا من فتك العباسيين الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي استطاع أن يفر الى بلاد المغرب ثم عبر منها الى الأندلس ودخلها وأسس بها إمارة في مدينة قرطبة ظلت تقوى على مر الزمن حتى اخضعت لسلطانها الاندلس بأكمله. وهكذا أصبح الأندلس لبني أمية، ولكن سرعان ما دبّ الضعف في جسم الخلافة الأموية الاندلسية وانسلخ حكام الأقاليم عنها واحدا بعد الآخر. وقامت عدة دويلات على رأسها ملوك يطلق عليهم المؤرخون اسم ملوك الطوائف. وكان عصرهم من أزهى عصور الحضارة الاسلامية على الرغم من انه كان عصر انحلال سياسي. ذلك ان كل عاصمة من عواصم تلك الدويلات حرصت أشد الحرص على أن تنافس قرطبة في عنايتها بالعلوم والفنون والسمو بالحياة الاجتماعية. ونتيجة للطمع الذي سيطر على هؤلاء الملوك وانقسامهم السياسي ضعف نفوذ العرب في الاندلس مما مهد السبيل أمام أشراف الاسبان

والقوط المرابطين في الشمال للتعاون على القيام في وجه العرب لاسترداد بلادهم. وكان من الطبيعي أن يستعين عرب الاندلس باخوانهم في الجنس والدين وكان أقرب العرب اليهم امراء بلاد المغرب حيث قامت في ذلك الوقت دولتان فتيتان هما دولة المرابطين ودولة الموحدين، وقد نجح ابن ياسين في أن يوقظ الحماس الديني في نفوس أتباعه فخرجوا معه يفتحون البلاد ونجحوا في الاستيلاء على المغرب وخفوا لنجدة اخوانهم من عرب الاندلس وانتصروا على الاسبان انتصارا باهرا في واقعة «الولاقة». وبمضي الوقت وقيام امراء ليست لهم قوة خلق ابن ياسين أو اخلاص يوسف بن تاشفين تسرب الضعف الى هذه الجماعة وانغمس رجالها في الترف وانتشر الفساد، الأمر الذي مهد لقيام الموحدين وظهور ابن تومرت، وقد كان زرعا متقشفا خارب المنكر في كل مكان ونجحت دعوته نجاحا منقطع النظير وأعلن للناس انه المهدي المنتظر، وعلى أي حال فان ضم المرابطين للاندلس لم يقطع سلسلة التقدم الحضاري لتلك البلاد بل استمرت عجلة التطور تدور بنفس السرعة التي كانت تدور بها من قبل، أما الموحدون فكان دورهم على مسرح التاريخ أطول زمنا وأبعد حدا، وقد نهلوا بدورهم من معين حضارة الاندلس وتمتعت البلاد في عهدهم بالهدوء وتوفر فيها الجو المناسب لاقامة المنشآت المعمارية العظيمة التي لم يبق منها الا القليل، ولعل أشهر ما وصلنا منها مئذنة المسجد الجامع في اشبيلية وتعرف عند الاسبان باسم «الخيرالدا». ولم تزدهر فنون العمارة والزخرفة وحدها في هذا العصر بل ازدهر كذلك فن الشعر وتجلت فيه الرقة والطرافة كما وصلت الثقافة الى ذروتها العليا فظهر رجال العلم والأدب نذكر منهم ابن سهل الشاعر وابن البيطار عالم النبات وابن رشد الفيلسوف وابن عربي من أئمة الصوفية وابن جبير الرحالة المعروف.

وقد نجح الموحدون في نقل هذه الحضارة الى مدى أوسع تجاوزوا به بلاد المغرب الى قلب افريقية كما ان اتساع ملكهم وطول مدة حكمهم كانا لهما أثر واضح في نضج الحضارة العربية فقد امتزجت المقومات الحضارية في البقاع المختلفة في هذا الملك الواسع وتفاعلت معا تفاعلا كان كله خيرا وبركة على حضارة العرب. ولما ضعف أمر الموحدين بالاندلس وأخذت قواعد ملكهم تخرج من أيديهم تباعا بعضها يقع في أيدي الاسبان وبعضها يقع في أيدي العرب ظهرت دولة بني الأحمر (1232 ـ 1492 م)، وبرز على المسرح محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر.

واستطاع أن يشق لنفسه طريقا وسط تلك الفوضى التي كانت سائدة في الاندلس ونجح في اقامة مملكة غرناطة سنة 1232 م. على أن حكم العرب في الاندلس كان قد أخذ يهتز بقوة قبل قيام مملكة بني الأحمر بما يزيد على قرن من الزمان وأخذت ممالك ملوك الطوائف تسقط الواحدة بعد الأخرى في يد الاسبان. ففي سنة 1118 م سقطت سرقسطة وفي سنة 1235 سقطت قرطبة وفي سنة 1241 سقطت بلنسية وفي سنة 1243 سقطت مرسية وفي سنة 1246 سقطت اشبيلية. وكان من الممكن أيضا أن تسقط مملكة غرناطة وينتهي بذلك حكم العرب في تلك البلاد لولا أن شاء القدر أن تقوم فيها دولة بني الأحمر التي صمدت للاسبان ولم تسقط الا في سنة 1491. وفي خلال هذه الفترة تجمع في غرناطة المهاجرون من العرب الذين استولى الاسبان على بلادهم وانتشروا في ربوع غرناطة يعملون في حرفهم المختلفة التي حذقوها في بلادهم. حتى قيل انه لم يبق في غرناطة شبر من الأرض لم يستغل. وهكذا بلغت غرناطة الذروة، في الحضارة الانسانية وتركزت هذه الحضارة العربية بشتى مظاهرها في هذه المملكة الصغيرة. فازدهر العلم، ويكفي أن نشير الى ابن خلدون ومؤلفاته وازدهر الشعر ازدهارا كبيرا نحس به حين نقرأ قصائد ابن زمرك على جدران قصر الحمراء وازدهر فن البناء والزخرفة بل وجميع الفنون الزخرفية الأخرى كما تتجلى على الخشب وعلى الخزف وعلى الجص. والأمر الذي لا سبيل الى نكرانه هو أنه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في ظلمات الجهالة والفساد. كان العرب في اسبانيا قد أقاموا حضارة زاهرة، ولعبت اسبانيا العربية دورا هاما في تطور العلم والفن في أوروبا وكانت هي حاملة مشعل الحضارة تبدد به سحب الجهل وتنير به أرجاء أوروبا المظلمة.

العمارة المدنية بالاندلس :

كانت العمارة المدنية احدى أنواع العمارة بالأندلس وتشمل الدور والقصور والحمامات والفنادق والقيساريات ودور الصناعة وجسور المياه والقناطر، أضف الى ذلك العمارة الحربية من أسوار وقلاع وقصاب وبطبيعة الحال كان أيضا للعمارة الدينية نصيب كبير في بلاد الأندلس لما بناه المسلمون من مساجد وجوامع.

لقد افتتح المسلمون في الاندلس مدنا مزدهرة العمران وشاهدوا مبان تختلف

عما شاهدوه في المشرق بهرتهم عمارتها، وكان لا بد لهم أن يعيشوا في دورها حتى تتهيأ لهم الوسائل لبناء دور خاصة بهم. ولم يكد يمضي على فتح الاندلس نصف قرن حتى شهدت حركة معمارية ضخمة في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وبنيه من بعده وخاصة عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، فأقيمت في عهدهم ابنية تتسم بنظام الدور السابقة على الفتح الاسلامي. وتطور هذا النظام تدريجيا متأثرا في تطوره بنظام المسجد وهو أساس كل المباني الاسلامية.

ولم تتخذ الدار في الاندلس طابعا اندلسيا خاصا الا منذ عهد ملوك الطوائف. وبمرور الزمن وصل نظام الدار الأندلسية الى ذروة الاتقان في عهد الموحدين ودولة بني نصر.

وقد وصف ابن سعيد المغربي دور الاندلس بانها «في غاية الجمال المبالغة أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون منها». وكان أكثر هذه الدور لا تخلو من الماء الجاري والأشجار الكثيفة كالنارنج والليمون وغيرها. وكانت الدار الأندلسية تتألف من جزأين أساسيين هما الواجهة الخارجية وداخل الدار، أما الواجهة الخارجية فكانت خالية من الزخارف على حين ان داخل الدار مزخرف بزخارف جميلة اذ أن أهل الأندلس كانوا يبنون دورهم لأنفسهم كي يتمتعوا بالحياة داخلها، كما ان المرأة الأندلسية كانت تؤثر دائما البقاء داخل بيتها فلا تخرج الا نادرا ومن ثم فحياتها وثيقة الصلة بداخل الدار. ولهذا كان من الضروري تزيين داخلها بالزخارف الرائعة حتى تعوض للمرأة ما كانت تفقده من بقائها رهينة دارها. وكان مدخل الباب في دور الأغنياء يؤدي الى ردهة وهذه بدورها تؤدي الى البهو، أما المدخل في الدور العادية فكان يتصل بممر منكسر على شكل زاوية قائمة حتى لا يتاح للمارة في الطريق رؤية من بداخل الدار. وظهر في دور بني نصر التي ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي طابع جديد لواجهة المدخل غنية بالزخرفة اذ يعلو المدخل عادة عتب يعلوه نافذة مزدوجة ويكتنف المدخل من كلا جانبيه عمود ملتصق بالجدار يعلوه مسند نصفه الأدنى من الجص والأعلى من الخشب المنقوش ويستقبل هذا النصف العلوي من المسند أحد طرفي ظلة بارزة من الخشب وظيفتها حماية الزخارف الجصية الملونة والزليج الذي يكسو أزار واجهة المدخل. كما كانت الواجهة الخارجية للدار تزود

أحيانا بشراجيب أي نوافذ بارزة تشبه الشرفات تعلو فتحة الباب وتغطي هذه النوافذ شبكات من الخشب تتيح للمرأة رؤية المارة دون أن يراها أحد من الخارج. واذا كانت هذه الشراجيب البارزة عن الجدران تسبب ضيقا في الحارات وتزيد من ظلماتها الا أنها في الوقت نفسه كانت تخفف من حرارة شمس الأندلس، كما كانت تمنح النساء فرصة التمتع بما يجري خارج الدار دون أن يراهن أحد من المارة. وما زالت ذكرى الشراجيب ماثلة في شرفات الدور الاندلسية حتى الآن وخاصة في مدن مرندة واشبيلية والسهلة. (الشكل).

وبالإضافة الى الشراجيب كان يطل على الشارع بطول الواجهة حجرة كبيرة بارزة تحملها مسائد تسمى الغرفة البرانية ويغلب على الظن ان انتشارها كان بسبب رغبة الأهالي في استغلال مساحة الأرض التي تبنى عليها الدار الى أقصى الحدود. وكانت هذه الغرف تجعل من الشوارع الأندلسية ممرات مسقوفة تحجب حدة الضوء وتخفف حرارة الجو.

أما الدار الأندلسية فكان يتوسطها بهو مربع يمدها بالهواء والضوء، ويقول المؤرخ الاشبيلي الونسو مورجادو، الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي، في بعض بيوت اشبيلية: «وللابهاء التي لا تخلو منها دار أرضية من الاجر المحكوك ويكسوها الأغنياء بالزليج ويحيطونها بأعمدة الرخام وكانوا يعنون كل العناية بتنظيفها. وكثيرا ما تغطى هذه الابهاء بظلات من النسيج في الأوقات التي تشتد فيها الحرارة. فيلطف الزليج والرخام من حرارة المكان.

وأكثر من هذا كانوا ينصبون نافورة مياه في وسط الابهاء ويغرسونها بأجود الأشجار. أما البيوت التي يتعذر على أصحابها عمل ذلك فقد كانوا يستغنون عن ذلك بآبار المياه. وكانت بالاحياء التجارية في الاندلس دور صغيرة تتكون من طابق واحد وأحيانا من غرفة واحدة تعلو أحد الحوانيت التجارية. وكان يصعد الى هذه الغرف العليا عن طريق فتحة بجدار الحانوت يخرج منها درج يصل بين الحانوت والغرفة. وكانت هذه الغرفة تستقبل الضوء من منافذ صغيرة تشبه منافذ السهام في الأسوار والقلاع. وكانت هذه الغرف تسمى «بالمصاري» جمع مصرية. وما زالت اللغة الاسبانية تحتفظ بهذا الاسم العربي.

وتذكر الوثائق الاسبانية التي تبعت سقوط المدن الاسلامية بمناسبة توزيع الدور الأندلسية على الفاتحين الاسبان ان كثيرا من هذه الدور كانت تشتمل على اصطبلات ومطابخ ملحقة بفناء الدار. ومن أمثلة الدور الاسلامية التي بقيت في بعض المدن مثل مدينة غرناطة دار اسلامية حفظت حتى أواخر القرن الماضي، وكانت تتكون من بهو مربع طول ضلعه خمسة أمتار تحيط به غرف. وبكل من الجانبين الشمالي والجنوبي ممر يطل على البهو بثلاثة عقود ترتكز على أعمدة والزخارف التي تكسو هذين الجانبين زخارف جصية هندسية ونباتية بينها عبارات «لا غالب الا الله»، لا إله الا الله، وهي محفورة في الجص. وكان باب الدار في الجدار الشمالي المطل على الفناء تعلوه ثلاث نوافذ أقواسها نصف دائرية وتكسو هذه النوافذ شبكات جصية من الزخرفة الهندسية وتشغل الفراغ بين النوافذ زخرفة نباتية غاية في الجمال. كما يحيط بالنوافذ اطار مستطيل به افريز كتابي تتكرر فيه عبارتا «العزة لله»، «البقاء لله».

وصف لنا جين روبلز في كتابه «مالقه الاسلامية» دارا ترجع الى عصر بني نصر فذكر انها مستطيلة الشكل تتكون من طابقين ومدخلها في الواجهة وفي وسطها بهو مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة تطل على هذا البهو ببائكات من ثلاثة عقود ترتكز على أعمدة وتتوزع الحجرات على هذه الأروقة . وكانت تسقف هذه الحجرات لوحات خشبية تتخذ شكل هرم ناقص. أما فتحة الباب فهي على شكل عقد متجاوز تحيط به تربيعة من الاجر.

فحص مدينة الجزائر

(نوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية عشية الاحتلال)

ناصر الدين سعيدوني

يتشكل فحص مدينة الجزائر من المنطقة الشرقية لاقليم الساحل التي تؤلف في حد ذاتها حاجزا طبيعيا بين ساحل البحر وسهل متيجة الأوسط بأوديته وهضابه العديدة التي يبلغ أعلى ارتفاع لها عند قمة جبل بوزريعة 417 م.

وتقدر المساحة الاجمالية لفحص مدينة الجزائر أواخر العهد العثماني بحوالي ثلث مساحة اقليم الساحل كله[1]، أي ما لا يقل عن 150 كلم²، وهو بهذه المساحة يمتد الى ما يزيد على اثني عشر كيلومترا عن أسوار مدينة الجزائر[2]، فيتاخم من جهة الجنوب والجنوب الغربي وطن بني خليل ومن ناحية الشرق وطن الخشنة، أما من جهة الجنوب الشرقي فيحاذي وطن بني مسوس[3].

ويمكن أن نقسم فحص الجزائر الى ثلاث مناطق متمايزة حسب الطرق الرئيسية المؤدية اليها والأبواب التي تنفتح عليها. فهناك المنطقة الشمالية التي يرد ذكرها في وثائق الوقف باسم فحص باب الوادي وهي تضم النواحي التالية: السد، أبي النور، الرملة، المنية، واد قريش، أكمان، قامة الفول، بوسكور، بوزريعة، عين السخاخنة، بير طرارية، تاقليت. وهناك أيضا المنطقة الجنوبية أو الوسطى التي تعرف بفحص الباب الجديد، والتي تشتمل على البقاع التالية: الابار، عيون حيدرة، بير الدروج، عين بن عطية، برج حسن باشا، سيدي يحي الطيار، القادوس، أجنان عين الزبنوجة، الوادي الأكحل، وادي الرمان، بني مسوس.